

الرواية النسائية العربية في مزايا النقد المعاصر – مقارنة في نقد النقد -

The Arab Woman's Novel Through The Lens Of Contemporary Criticism – An Approach To Criticism Of Criticism

بشينة ناصري*

جامعة الشاذلي بن جديد-الطارف-
(الجزائر)

bouthainanasri47@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/09/29

تاريخ القبول: 2025/09/23

تاريخ الاستلام: 2025/06/26

ملخص:

لا ريب أن تلقي الرواية النسائية في الخطاب النقدي اصطدم بعدة عراقيل نظرا لطبيعة هذه المصطلحات ذات المفاهيم الزبنيّة وطابعها الهلامي الذي يصعب تقييده، ناهيك عن المرجعيات الفكرية والثقافية والفلسفية والتاريخية الغربية التي تستند عليها تلك الرؤى وهذه المصطلحات، لذا اختلفت توجهات النقاد في دراسة النصوص الروائية النسائية باختلاف رؤاهم وميولاتهم ومرجعياتهم، لهذا نسعى من خلال هذا البحث إلى الكشف عن واقع الرواية النسائية العربية ومآلاتها من منظار النقد المعاصر، وتتبع مختلف العراقيل التي فجرت جدلا وسجالا في الوسط النقدي، وسنحاول رصد أبرز القضايا والآراء النقدية التي قاربت المنجز الروائي النسائي.

الكلمات المفتاحية: الرواية النسائية، الخطاب النقدي، نقد النقد .

Abstract:

There is no doubt that the reception of the women's novel in critical discourse has encountered several obstacles due to the nature of these terms with their mercurial concepts and their amorphous nature that is difficult to restrict, not to mention the Western intellectual, cultural, philosophical and historical references on which these visions and terms are based. Therefore, the critics' orientations in studying women's novel texts differed according to their visions, tendencies and references. Therefore, we seek through this research to reveal the reality of the Arab women's novel and its outcomes from the perspective of contemporary criticism, and to track the various obstacles that sparked controversy and debate in the critical milieu. We will try to monitor the most prominent critical issues and opinions that approached the women's novel achievement.

Keywords: Women's novel; critical discourse; Criticism of criticism .

. مقدمة:

عملت المنظومة الكلاسيكية على إعلاء النسق الفحولي وبسط هيمنته منذ أمد بعيد، فمنذ الفكر اليوناني والنظرة الدونية تكبل قضية المرأة، ما دفعها إلى التمرد على القيود التي فرضتها الثقافة الذكورية، محاولة فرض وجودها وكيونيتها وخاصة من خلال الكتابة تحت مقولة "آسيا جبار": "أكتب تجنباً للموت، أكتب تفادياً للنسيان" فراحت تنظم الشعر وتنسج الروايات والقصص، وأطلقت العنان لخيالها الجامح لبناء عالمها الخاص المناهض لفكرة الإقصاء التي عاشتها منذ القدم، ليتجلى الأدب النسائي كظاهرة فكرية تبرز إبداعات المرأة وقدراتها المتعددة في خلق خطاب يؤسس للمغاير ويكسر أفق التوقعات المعتادة، بالاستناد على الذات الأنثوية الخاصة وهويتها المستقلة، لتعكس "الكوجيطو" الديكارتي بطريقة مميزة تبرز خصوصيتها، وهذا ما يتجلى بحسبنا في مقولة: "أنا أكتب... أنا مختلفة، إذن أنا موجودة".

فكانت الرواية من أبرز الأجناس الأدبية اهتماماً من لدن المرأة؛ وذلك لتمكنها من استيعاب هموم المرأة والتعبير عن هواجسها بوضوح وأكثر دقة، أضف إلى ذلك قدرة المرأة على نسج الحكايا والنهل من معين خيالها المجنح الذي لا ينضب، فكانت قصص "ألف ليلة وليلة" لشهرزاد مثالا واضحا على قدرة المرأة على الارتقاء إلى عوالم العجائبية والجمالية اللامألوفة.

وقد استطاعت المرأة الولوج إلى عالم الكتابة اللامنتهي، فكانت نهاية الخمسينيات ميلادا للعديد من الروايات النسائية، فكانت أبرزها رواية "أنا أحيا" لليلى بعلبكي، التي استطاعت من خلال عنوانها إعلان انتفاضة الذات الأنثوية على الهيمنة الذكورية الخائفة وفرض هويتها المستقلة ووجودها الخاص، ما أثار جدلا وسجالا كبيرين في الوسط النقدي والأدبي على السواء، وانقسمت الآراء إلى مؤيد ورافض للكتابة النسائية التي خلخلت المنظومة الكلاسيكية المعتادة.

واستنادا على ما تقدم جاء موضوع بحثنا موسوما بـ: "الرواية النسائية العربية في مآرا النقد المعاصر" - مقارنة في نقد النقد - وسنسعى لرصد أبرز الآراء النقدية حول كتابة المرأة عامة والرواية النسائية خاصة، وبالتالي يطمح هذا البحث للإجابة عن الأسئلة الآتية:

- كيف كان تلقي الكتابة النسائية في النقد العربي الحديث والمعاصر؟
- ما هي أبرز القضايا والإشكالات التي تجلت في دراسات النقاد؟
- هل كتابة المرأة تعد أدبا نسويا أم نسائيا؟ ما الفرق بينهما؟ ولماذا نجد أدبا نسويا بقلم رجالي بخلاف بعض نصوص النساء؟

- فیم تجلت خصوصية الكتابة النسائية من خلال طروحات النقاد؟
- وعليه تتجلى أهم الأهداف التي نسعى إلى تحقيقها من خلال هذه الدراسة فيما يلي:
- التدقيق في التجربة الروائية النسوية للكشف عن منبع الإبداع وجوهر تميزها عن النص الفحولي.

- السعي للإجابة عن تساؤلات الراهن الروائي في تتبعه للعملية الإبداعية وآليات إنتاج المعنى وطابعها الرؤيوي الخاص.

- تتبع طروحات النقاد للوقوف على أهم الرؤى التي من شأنها الارتقاء بالكتابة النسوية إلى سموات الإبداع . وبالتالي يمكننا عد هذا البحث مقارنة في نقد النقد، لذا ارتكزنا على أساسياته من حفر وتفكيك وتأويل.

2. إشكالية المصطلح بين النقد الغربي والعربي

إن أغلب المصطلحات الوافدة من الغرب تصطدم بمأزق الرفض وفتنة التأيد، فتخلق جدلا وسجالا كبيرين في الوسط الأدبي والنقدي "ونظرا للهوية الصامتة للمصطلح - كما يقول المسيري - فإن المصطلح النسوي الغربي محل إشكال نظرا لهويته الغربية، ولعدم استطاعة الحقل الدلالي العربي على ضبطها بشكل دقيق مما يتسرب معه المكونات الصلبة للمصطلح الغربي"¹؛ أي أن المصطلح رهين ببيئته؛ حيث يضج بأصولها ومرجعياتها ومفاهيمها وكذا شروطها فتكسبه خصوصية مرتبطة بهويته الأصلية؛ لذلك تنبثق عوائق الانتقال من بيئة لأخرى وهذا ما حدث للمصطلح النسوي/النسائي الذي خلق لنا:

1.2 . معضلة الترجمة وزبنيّة الدلالة:

لعلنا لا نعيد عن الصواب إذا قلنا إن مشكلة استيراد مصطلح غربي يختلف في السياق والثقافة قد شكل مأزقا عويصا، ذلك أن نقل المصطلح من بيئات مختلفة هو نقل آخر لأبعاده الدلالية وحمولاته التاريخية والفلسفية والثقافية وبهذا نصطدم بمشكلة المفهوم التي تكون مشبعة بدلالات إيديولوجية وتاريخية مختلفة، ومشكلة الترجمة التي ألهمت التساؤلات حول الترجمة الأقرب للغة الأصلية؛ فكلما اختلفت الترجمات وتباينت تحررت من سلطة الضبط المعرفي وهوت إلى ورطة اللامحدود "فتعدد اللغات المنقول منها جزء من مشكلة تعدد الترجمات، فالعرب لا ينقلون عن لغة واحدة، بل هناك أكثر من لغة منقول منها حيث يغلب على المشاركة النقل من النصوص الانجليزية بينما يغلب على المغاربة النقل من النصوص الفرنسية"²؛ وعليه نجد أن الترجمة لا تتبع من مجهودات جماعية بل هناك قطيعة بين المترجمين انبثقت عنها ترجمات فردية تنطلق من مرجعية المترجم الفكرية والمعرفية سعيا منه لإرساء بصمته الخاصة دون نظرة موضوعية فاحصة، ولأجل ذلك تتراءى لنا الجهود في الترجمة ضخمة إلا أنها غير كافية لعدم تعاضد الرؤى في البحث عن الدلالات والمفاهيم الأقرب للغة الأصلية؛ فتتجلى لنا الترجمة جميلة خائنة في الآن ذاته.

2.2 فوضى المصطلحات وإشكالية التصنيف

إن اختلاف الترجمة أفضى إلى تعدد المصطلحات واختلافها فنجد تسميات كثيرة منها (أدب المرأة، الأدب النسائي، الأدب الأنثوي، أدب الأظافر الطويلة، أدب الروج والمانكير، الأدب النسوي،...)؛ أفضى إلى انبثاق ثلاثة مواقف نقدية تصف كتابة المرأة؛ إذ تبنى كل موقف مصطلحا يراه أكثر اقترابا من ترجمة المصطلح الغربي (Feminist Writing)

أ/- الأدب النسائي / النسائية: "Féminism"

يؤحي المصطلح في حد ذاته «بالخصر والانغلاق في دائرة جنس النساء، وما تكتبه النساء من وجهة نظر النساء سواء أكانت هذه الكتابة عن النساء أم الرجال أم عن أي موضوع آخر»³؛ أي أن الأدب النسائي له علاقة وثيقة بما تكتبه المرأة بغض النظر عن الموضوع الذي تتطرق إليه، إلا أن هناك من يربطها بالبعد السياسي كذلك .

ب/- الأدب الأنثوي / الأنثوية: "Fenaleness"

لطالما كان "لفظ الأنثى يستدعي على الفور وظيفتها الجنسية، وذلك لفرط ما استخدم اللفظ لوصف الضعف والرقّة والاستسلام والسلبيّة"⁴؛ وبذلك نجد أن الأدب الأنثوي محصور في التمييز الجنسي بين الطرفين هذا من جهة، ومن جهة أخرى يحمل دلالة الخضوع والضعف ما يعزز النظرة الدونية للمرأة .

ج/- الأدب النسوي / النسوية: "Femininity"

أما ما يخص "مصطلح" النص النسوي " فبات الأكثر دلالة إلى حد كبير على خصوصية ما تكتبه المرأة في مقابل ما يكتبه الرجل، فالنسوية إذن تمثل وجهة نظر النساء بشأن قضايا المرأة وكتابتها"⁵، وعليه نجد أن الأدب النسوي هو كل الكتابات التي تعالج قضايا المرأة بصرف النظر عن جنس كاتبها سواء كان امرأة أو رجلاً، إلا أنه يميل أكثر لخصوصية كتابة المرأة ومميزاتها الثقافية والإبداعية عن الرجل، كما " يطلق مصطلح النسوية، إذن، وحسب " العزيزي" على الفكر المؤيد لحقوق النساء، والداعي لتحريرهن من القمع الذي تمارسه السلطة الذكورية ضدهن... ويتضمن الاصطلاح- تصنيف الكاتبة- تعريف النساء بأنهن مقموعات بصورة دائمة ومنظمة، وأن علاقات الجنوسة (العلاقات بين الذكور والإناث) ليست ثابتة، ولا يصح أن تدرج في الاختلافات بين الجنسين، كما يتضمن أيضاً الالتزام السياسي بتغيير أوضاعهن نحو الأفضل"⁶؛ وهذا يعني أن هناك اختلافاً جوهرياً بين الكتابة النسوية والكتابة النسائية، وبالتالي يمكننا القول أن " ليس كل الكتابات الإناث نسويات، وهذا ينطبق بشكل خاص على كاتبات ما قبل القرن التاسع عشر. وبالتالي فإن النظرية النسوية تحدد موضوع الدراسة (كتابة النساء)، ولكن العلاقة بين الاثنين أعمق من ذلك. تعبر عديد النصوص التي كتبتها النساء عن المخاوف نفسها التي تعبر عنها النظرية النسوية: التجربة الفريدة للنساء في التاريخ؛ مفهوم الوعي الأنثوي؛ تعريفات الجندر (الجنوسة) التي تحد وتضطهد؛ وسبب تحرير النساء من تلك القيود"⁷، ما يفجر إشكالية أخرى مترامية الأطراف تنضوي تحت مسمى "الجندر" أو "النوع الاجتماعي".

والجدير بالذكر في هذا المقام أن فكرة التحرر من الوصاية الذكورية والمطالبة بالحقوق المسلوبة أساس الاتجاه الفكري والسياسي والأدبي النسوي، و" هنا، تطرح الأسئلة الآتية: هل كل النساء نسويات؟ هل التجربة المشتركة للنساء قادرة وحدها على جعلهن نسويات؟ هل أعمال النساء (الإبداعية والنقدية مثلاً) نسوية، لأنها نسائية أو قامت بها نساء؟ هل يمكن للرجال أن يكونوا نسويين رغم أنهم يفتقدون لتجربة

الأنثى"⁸، وعليه نجيب أنه ليست كل النساء نسويات، كما أن التجربة المشتركة للنساء وحدها ليست قادرة على جعلهن نسويات فبعضهن خاضعات للسلطة الذكورية الخانقة، وكما سبق وأشرنا إليه أن الفكر التحرري الجامح الذي يسعى إلى التخلص من شرقة الثقافة الذكورية والتمرد على النسق الفحولي المهيمن على المجتمعات، واسترجاع حقوق المرأة المسلوقة أساس الفكر النسوي، ذلك أن المرأة التي مازالت خاضعة للاستعمار البطرياركي هي بالتأكيد لا تعبر عن التجربة النسوية ولا تنتمي إليها أبداً؛ معنى هذا أنه حتى الرجل الذي يكتب لمناهضة سياسة الوأد الممنهجة ضد المرأة يحمل الفكر النسوي، وبذلك يمكن أن يشترك في التجربة النسوية كشاهد أو كمخبر أو كمدافع على تجربة المرأة المهمشة وليس كجزء منها، فالمرأة لكونها جزء من تلك التجربة المساوية هي الأقدر على التعبير وفصح عقم الثقافة الذكورية أكثر من سواها، فقد حرصت المرأة على الدفاع عن حقوقها وطالبة باسترجاعها وعمدت إلى التخلص من هاجس التفضيل الجنسي، فانطلقت من الاتجاه السياسي وانتقلت إلى الأدب كوسيلة لتحرير المجتمعات من هيمنة الثقافة الذكورية.

وعليه يمكننا القول إن "كتابة النساء ترتبط بقضايا المرأة واهتماماتها والدفاع عن أفكارها، أما الكتابة النسوية فلها علاقة مباشرة بالإبداع الأدبي والنصوص الإبداعية، وسواء كانت هذه النصوص من إبداع امرأة أو رجل، المهم أنها تخص عوالم المرأة الخاصة والذاتية، معناه أن كتابة النساء لها علاقة بالقضية السياسية، والكتابة النسوية تهتم بالناحية الأدبية، وقد يحدث تداخل بينهما لدرجة يصعب الفصل بينهما، عندما تكون الكتابة النسوية الوعاء الذي يحمل القضية السياسية ويروج لها في مختلف الأشكال الأدبية، في الشعر والرواية والقصة"⁹، لذا ارتبط الأدب النسائي بالموقف السياسي، أما الأدب الأنثوي متعلق بالفارق البيولوجي، والأدب النسوي هو الأكثر تداولاً لما يحمل من دلالات تجزم بخصوصية الكتابة الإبداعية للمرأة ومنطلقاً الفكرية وطرحها لمواضيع اجتماعية وإنسانية وتركيزها على معالجة شتى القضايا المتصلة بكيئوتها، والسعي لخلخل المنظومة الكلاسيكية الذكورية من خلال كتاباتها التي تطمح فيها إلى منح البديل لتجاوز النموذج النمطي وتجاوز النظرة العنصرية التي تقزم إبداع المرأة وقدراتها المميزة .

3 . الكتابة النسائية بين الرفض والقبول:

1.3 الموقف النقدي الراض للأدب النسائي:

الجدول 1: يبين الموقف النقدي الراض للأدب النسائي.

الموقف	الاسم	القول
الموقف النقدي الراض للأدب النسائي	" خالدة سعيد"	"إن إطلاق مصطلح الأدب النسائي أو الكتابة النسائية يبتعد عن الدقة والموضوعية، لأن ما تبدعه المرأة لا يملك تلك الخصوصية التي تميزه، وبالتالي تؤهله لأن يكون أدبا متميزا يحمل هويته الخاصة، فهي ترفض المصطلح لأنه سيحصر الأدب في الفتوية (نسائية/ذكورية) « ¹⁰
	" سعيد يقطين"	« وقد رفض مصطلح " الأدب النسوي " بالنظر إلى اعتبارين اثنين، يتمثل الأول في أن هذا الأدب - حسب - ليس حكرا على المرأة وحدها، بل بإمكان الرجل أن يكتب أدبا نسويا إذا أمكنه تمثل القضايا النسوية شديدة الصلة بعالم المرأة أوضاعا وأدوارا، وما يتوفر عليه النص من علامات المؤنث التي تتراوح بين الاستعاري والجمالي والرمز وحتى الحقيقي، أما الاعتبار الثاني في رفضه فهو كون أن هذه التصنيفات والتنوعات تضر الأدب أكثر مما تخدمه، فالتاريخ الأدبي الحديث لا يركز بالدرجة الأولى والأخيرة إلا على محتوى الإبداع وعلى منتجه ومن هو، والأولى من ذلك التركيز على الطابع الجمالي، لأن إهماله والتركيز على معايير ثانوية أدى إلى تراجع الأدب والفن وعدم نضج النقاش الجمالي .. « ¹¹
	"يمنى العبد"	« إن خصوصية هذا الأدب ليست ثابتة بل هي رهينة الظروف، فمتى زالت ظروف القهر وأشكاله زالت خصوصية هذا الأدب، فالكتابة بالنسبة للمرأة - حسبها - وسيلة تحتمي وراءها إزاء وضع مترد يهدد وجودها وكيانها ناشدة من خلالها التحرر» ¹²

المصدر: رضا عامر، الكتابة النسوية العربية من التأسيس إلى إشكالية المصطلح

ومنه نستنتج النقاط الآتية:

- إن النظرة الدونية للمرأة كبلت الرؤية النقدية الموضوعية؛ فتتراءى لنا حججهم واهية ليست مصقولة ببراهين صلبة، فمن المريب أن يحتكروا الخصائص الفنية والمميزات الجمالية للأدب في أقلام الرجال دون سواهم.
- إن أغلب الآراء تبدو حتمية مطلقة لا جدال فيها تركز للطبقية والعنصرية بين طرفين يمتلكان نفس القدرات؛ فالمقارنة التي تقصي طرفا على حساب الآخر دون أن تكون له حجج دامغة فهي آراء نسبية تبرز هشاشتها وتنبؤ بزوالها؛ فالنقد الانطباعي لا يؤسس لنظرية ثابتة.

- يرفض أغلب النقاد "الأدب النسائي" لأنه سقط تحت وطأة التصنيف (ذكر/ أنثى) ، وبما أن الأدب ليس له جنس فقد وجب التركيز على الإبداع الأدبي وحسب؛ ولكن لو صرحنا بأن المناهج النقدية السياقية والنسقية تختلف آلياتها في قراءة وتحليل النصوص في إبراز مكامن الجماليات فيها ألا يحيلنا هذا إلى انفتاح النص على المتعدد القرائي، فتختلف القراءات باختلاف المتلقين، كذلك الحال بالنسبة للمبدعين الذين تختلف تعابيرهم وأساليبهم ودققاتهم وتجاربهم ، أليس هذا كفيل بصنع الفارق؟.

- إن جل الأراء لا تسعى إلى البحث والتنقيب عن مناهل جديدة لتجديد عجلة الإبداع والبحث عن خصائص فنية مبتكرة، بل تظل متقوقة تحت الهيمنة الذكورية وسيطرة النموذج المقدس، وهذا ما يفضي إلى حصر الأدب في زاوية واحدة فيحرمننا من الولوج لعوالم الإبداع اللامتناهي.

2.3 الموقف النقدي المؤيد للأدب النسائي:

الجدول 2: يبين الموقف النقدي المؤيد للأدب النسائي.

الموقف	الاسم	القول
الموقف النقدي المؤيد للأدب النسائي	"جورج طرايشي"	« يقر بالاختلاف القائم بين إبداع المرأة وإبداع الرجل، فيقول: " إذا سلمنا بإمكانية وجود رواية نسائية فلا مفر من التسليم أيضا بأن الرواية النسائية ليست هي تلك التي تكتبها امرأة فحسب، بل هي أيضا تلك التي تكتبها بطريقة مغايرة للطريقة التي يكتبها الرجل"» ¹³
	"توفيق بكار"	«" يعتبر وجود الرواية النسوية حدثا بالغ الأهمية في حياة الأدب العربي الحديث في كل أوطاننا، لا لأن هذه الرواية تعد إضافة متميزة إلى الإنتاج الرجالي فحسب، بل ولأنها أيضا فيها طرافة من حيث أنها تلقي على واقعنا أضواء جديدة، فكأننا قد أصبحنا مع هذا الإبداع النسائي ننظر إلى أنفسنا ومجتمعاتنا وتاريخنا بعينين اثنتين لا بعين واحدة، ونعيها بعقلين وندركها بحسين، بل يقيني أن كاتباتنا الروائيات قد أبدین ويبدین من الجرأة والشجاعة ودقة الشعور، ما قد يفوق أحيانا جسارة الرجال» ¹⁴

« ومنهم أيضا الناقدة التي حاولت رد الاعتبار إلى المصطلح وتخليصه من التأمّلات الخاطئة، إذا رأت أن الغموض الذي ينسحب على وجهات النظر المقدمة لمفهوم مصطلح " الأدب النسائي " راجع إلى عدم تحديد كلمة " نسائي " التي تحمل دلالات مشحونة بالمفهوم الحريمي الاحتقاري مما دفع إلى النفور منه خاصة من قبل المبدعات، ونجد الناقدة تحدد خصائص الكتابة النسوية التي تميزها عن كتابة الرجال وفي مقدمة هذه الخصائص الوظيفة التعبيرية التي تؤكد على دور المرسل الذي يكون في الكتابة النسوية مرتفعا إضافة إلى الوظيفة اللغوية التي تتجلى من خلال الإطناب والتكرار...»¹⁵	" رشيدة بنمسعود "	
--	--------------------------	--

المصدر: كريمة بكاي، الموقف النقدي والأدبي من " الأدب النسوي " في العالم العربي

وعليه نستنتج النقاط الآتية:

- إن التصريح بوجود أدب نسائي يعكس التأكيد على خصوصية الكتابة النسائية التي تختلف في رؤاها وميولاتها في معالجة القضايا الاجتماعية والانسانية وفي التطرق لقضاياها الحياتية؛ بل إن الاختلاف ينطبق على الجنسين فالنساء لا تكتبن بنفس العاطفة ولا التجربة والرجال كذلك.

- يرى "توفيق بكار" أن الكتابة النسائية إضافة متميزة للنتاج الرجالي، وبالنسبة له أصبحنا ننظر إلى مجتمعنا وتاريخنا بعينين لا بعين واحدة وندركها بحسين وهذا بيت القصيدة؛ فالأدب فن قولي تنهادى فيه اللغة الضوئية بعيدا عن التحديدات العلمية الصارمة، وهذا فيه رد على القائلين أن الرجل يركز على العقل والفكر والمرأة تسيطر عليها العاطفة والمشاعر، ذاك ما أسقطهم في زلة فادحة؛ ذلك أن الأدب لا يسعى إلى تقديم حقائق مطلقة دقيقة لا ريب فيها وفي هذا ما يرجح كفة الكتابة النسائية .

- إن استعمال مصطلح الأدب النسائي ليس فية عنصرية ولا طبقية، بل هو إقرار بخصوصية كتابة المرأة التي تتجلى حسب "رشيدة بنمسعود" في الوظيفة التعبيرية، فهي تسعى لإثبات ذاتها من خلال الإطاحة بالنموذج النمطي كمحاولة للتجديد .

ومنه نخلص إلى أن المصطلحات النقدية على اختلافها شهدت آراء متضاربة بين مؤيد ومعارض، إلا أن ذلك شيء طبيعي فهي تنتقل إلينا من سياق وثقافة وفكر مغاير، فتكون مثقلة بالدلالات المحملة بالمرجعيات التاريخية والفلسفية والاجتماعية المتباينة، فيظل المصطلح بين مد وجزر دون أن تكون هناك نهاية مطلقة لفوضى المصطلحات واختلاف المفاهيم فهذا أمر يستحيل حدوثه؛ لذلك فإن الأدب النسائي قد استطاع فرض نفسه في

الوسط النقدي والأدبي وهو اليوم يبحث لنفسه عن ركائز متينة لفرض هيمنته، ينافس فيها القلم الرجالي الذي ساد لأمد طويل، دون أن يجيب عن أسئلة معينة دقيقة تحيط به .

وعليه نتساءل من كَوّن تلك القيم والمعارف التي ظهرت في الأدب الذي صنعه الرجل منذ أمد بعيد؟ وكيف ذلك؟ ومن سمح بتمريرها؟، وكيف تسقط أسماء الروائيات عن الموروث الأدبي بصفة بارزة، فعلى سبيل المثال لا الحصر يرى بعض الباحثين أن هناك روايات نسائية ظهرت قبل رواية "زينب" للروائي "محمد هيكمل" لكن أغلبنا لا يعرف إلا روايته و" من المهم التأكيد هنا على أن ظهور ثلاث عشرة رواية نسائية قبل رواية زينب يبرهن على حجم المساهمة النسائية في ولادة الرواية العربية. لكن الغريب في الأمر هو أن كل الدراسات التي تناقش أصل الرواية العربية قد كتبت مع التجاهل المطلق للروايات النسائية. ومن المستحيل طبعاً اتهام كتاب مثل جمال الغيطاني وعبد الرحمن منيف ومحمد ذكروب باتخاذ مواقف متعمدة ضد النساء، ومع ذلك فإن دراساتهم الهامة عن أصل الرواية العربية لا تذكر روائية واحدة، مع أن النساء، كما رأينا، قد بدأن بكتابة هذا الصنف الأدبي قبل الرجال بزمن¹⁶، ألا يعني هذا أن هناك سياسة إقصاء ممنهجة ضد المرأة منذ الخنساء وفكرة الدونية ملتصقة بالأنثى وقبل ذلك بكثير، ثم لماذا ندفع المرأة في زاوية مظلمة ثم نتهمها بالعمى؟ ولماذا يركز الرجل على فكرة الفروق البيولوجية والسايكولوجية بين الطرفين ويجعلها حجة لتهميش المرأة؟ ربما هذا ما دفع بالباحثة " بثينة شعبان" إلى البحث والتنقيب عن الحقيقة من لسان نقاد رجال والتي تقول " حين سألت ذكروب عن السبب في أن كل هذه الدراسات، بما فيها دراسته، لم تذكر أية روائية، أجابني بصراحة وبابتسامة ودية " إن السبب الوحيد الذي يمكن لي أن أفكر به هو أن الكتاب -بمن فيهم أنا طبعاً- يعتقدون بشكل لا شعوري أن الأدب الذي تكتبه النساء غير هام"، وهكذا فقد عبر ذكروب بأمانة كاملة وبعمدة عما كنت أشك دائماً في أنه هو السبب¹⁷، ومن ثم نقر أن المجتمع الذكوري عزز نسق الفحل وعظمه حتى أصبحت كتابات الرجل ورؤاه نموذجاً مقدساً في المجتمعات سواء كانت الغربية أم العربية، هذه الهيمنة التي خضع لها المجتمع دون تمحيص ومساءلة.

كما تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن الفروق بين الطرفين ليست لإعلاء طرف على حساب آخر، إن الاختلاف جوهر الحياة والرؤية التكاملية من ضرورياتها، إذن نحن مختلفون لكن متساوون وليس العكس، أضف إلى ذلك الزلات التي وقع فيها بعض النقاد حين بدت توجهاتهم متناقضة، ففي الوقت الذي يؤكدون فيه على أن الإبداع عامة والأدب خاصة لا يخضع للتصنيف الجنسي، ينكرون دور المرأة ويجردونها من القدرة على الكتابة ويرفضون الإقرار بخصوصية خطابها واختلافه عن الآخر.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو ما تصدت له " مي زيادة" أول مرة حين تساءلت عن إمكانية اختلاف الأدوار بين الجنسين فقالت " لو أبدلنا المرأة بالرجل وعاملناه بمثل ما عاملها فحرمانه النور والحرية دهوراً فأى صورة هزلية يا ترى تبقى لنا من ذياك الصنديد المغوار¹⁸، هذا التساؤل الذي يحيلنا إلى الاصطدام

بفروق جوهرية في هذه القضية؛ إذ كيف نزع أن المرأة لا تقدر على الإبداع وليس لها خصوصية لغوية تمتاز بها عن الآخر ولا عاطفة جياشة تغري بها القارئ، ونحن في الوقت نفسه نجدها من أصغر الإمكانيات التي تصقل بها أسلوبها، ونمنع عنها الانخراط في أحداث الحياة التي تفتح أفكارها على عالم رحب، بل نصر على قمعها وإقحامها في زاوية مظلمة محدودة ثم نتهمها بالضعف والفشل والخنوع، في الوقت الذي منح الرجل لنفسه كل الحريات والحقوق للولوج لعوالم تضاعف قوته وتصلقها بمواهب متعددة، لأجل ذلك انتفضت المرأة على واقع موبوء لتنادي بإقامة العدل ومنحها الحق الذي جردت منه لسنين خلت، وعليه اتجهت إلى تقويض مركزية المركز وفضح عقم النظام الأبوي الذي أدى في كثير من الأحيان إلى تخلف المجتمع العربي.

4. سؤال خصوصية الكتابة النسائية

دفعت سياسة الإقصاء المنتهجة ضد المرأة إلى خلق وعي متمرد على النظام الأبوي الذي سيطر على المجتمع والثقافة لردح من الزمن، فألقى خطاب الأنثى ونعته بالنص الأجوف الذي لا يتعدى اجتاز آلام وأحزان ذات مكبوتة ولا يتجاوز ثرثرة لمشاكل ذاتية، فوسمها بالدونية وجردها من أدنى معالم الخصوصية، وذاك في ظل غياب صاخر لنقد موضوعي لكتابات المرأة، ما حرض المرأة على اقتحام عالم الكتابة وخلق لغة خاصة انطلاقاً من رؤاها وتجربتها الذاتية ودفقاتها الشعورية، هذا الوعي المتمرد على النمذجة ثار على القوالب المستهلكة وكرس مبدأ المساءلة المستمرة، فانبجس خطاب المرأة الثائر على النموذج المهيمن، فركزت المرأة على تفعيل حواسها وخيالها ومشاعرها المتدفقة لخلق خصوصية في خطابها؛ لذلك نجد أن "فيض المشاعر، والهواجس المتأثرة بنبض القلب، وتداعي الأفكار والمعاني، هي سمة بارزة في الكتابة النسائية، تقوم حركيتها على استنطاق الحواس، والقبض على البؤر المضنية في الذات، حيث التوتر والانفعال، والإنصات لما هو كائن، وما ينبغي أن يكون، فالمرأة بطبيعتها، تحسن الاستثمار المعرفي والشعري للحواس التي تتسلل من الجسد إلى الذات، ينعكس بدوره على الجسد النصي (...) فالمرأة تكاد تكتب بحواسها بل إن كتابة المرأة هي كتابة الحواس المسهمة في تشكيل الوعي"¹⁹؛ هذا الوعي المتمرد دفع بها لتمرير خطاب يتضمن تمثلاً الخاص بذاتها لينقلها من موقع المفعول به إلى الفاعل، تلك الفنيات التي كانت نتيجة للاختلافات الجوهرية بين الجنسين قد منحت لكل خطاب خصوصياته وجمالياته، ومن أبرز هذه الاختلافات نذكر:

1.4 الاختلافات البيولوجية:

مما لا شك فيه أن الاختلافات البيولوجية تنعكس على لغة الرجل والمرأة وأسلوبهما فتخضع كل طرف للتعبير بطرق مختلفة وفي هذا الصدد يقر "دورين كيمورا (Doreen Kimura) مثلاً أن الاختلافات بين الجنسين لها أسباب بيولوجية مرتبطة بالتنظيم الدماغي، الذي يتغير بحسب الجنس، بحيث يمكن القول إن هنالك " دماغ رجل" و " دماغ امرأة"²⁰، هذا الاختلاف الجوهري الذي من شأنه أن يفجر خصوصية بارزة، ولغة مميزة عن لغة الآخر وإن كانت اللغة العنصر المشترك بين الطرفين إلا أن طريقة استعمالها تختلف طبعاً، بل إن أسلوب الشخص

ذاته يتغير من تجربة إلى أخرى ويختلف كذلك باختلاف الزمان والمكان، لأجل ذلك " كان يسود في أوساط الفلاسفة والعلماء اعتقاد مفاده أن الفروق بين النساء والرجال في الأدوار الاجتماعية، وممارسة السلطة، والمكانة المهنية، ترجع إلى عوامل بيولوجية وراثية، ونيروبيولوجية وتكوينية، منها تأثير هرموني الأندروجين والإستروجين في تطور أجزاء من الدماغ تظهر فروقا جنسية وفروقا في السلوك والقدرات الإدراكية"²¹، وعليه تنتج هذه الاختلافات والقدرات خطابات بلامح خاصة بكل ذات مستقلة لها كينونتها وتوجهاتها وميولاتها ورؤاها لتنبثق في خطاب أدبي يعكس الفروقات الجوهرية بين الطرفين.

وهذا ما يؤكد الناقد " محمد برادة" الذي يقر بأن " الرجل الكاتب يلتقي والمرأة الكاتبة في اللغة التعبيرية واللغة الإيديولوجية لكن هناك اللغة المرتبطة بالذات - ببعدها الميتولوجي - من هذه الناحية يحق لي أن أفتقد لغة نسائية؛ فأنا من هذه الزاوية لا أستطيع أن أكتب بدل المرأة. لا أستطيع أن أكتب أشياء لا أعيشها. التمايز موجود على مستوى التميز الوجودي"²²، فهذا التمايز تخلقه أحداث مختلفة عاشتها المرأة وحدها دون الآخر كالطمث والحمل والولادة وغيرها، هذه المواقف التي تصطدم بها المرأة وتعيشها انطلاقا من قدراتها البيولوجية والسيكولوجية المختلفة عن الآخر، وبالتالي تكون استجاباتها للقضايا الحياتية وكيفية معالجتها خاصة بها ولن تمنح هذه القدرة لغيرها ما لم يعيش تجربتها، وهذا ما تجلّى في الرواية النسائية العربية بشكل بارز، فالموضوعات التي تعالجها الروائية تندفق من خصوصيتها البيولوجية لتتفجر في المتن الحكائي.

2.4 الاختلافات النفسية:

إن الفروق بين الرجل والمرأة سواء كانت خارجية أم داخلية بيولوجية أم سيكولوجية تؤثر بشكل مباشر على طريقة تفكيرهما وكيفية معالجتهما لشتى القضايا الحياتية، ولما كانت هذه الاختلافات جوهرية في بنية وتركيب الدماغ والهرمونات نجد أن لكل طرف مرتكزاته الأساسية التي تفرض عليه التفكير والحديث من خلالها، وأبرز مثال لذلك ميول المرأة للعاطفة أكثر من الرجل الذي غالبا ما يركز في لغته عن كلمات خالية من الاكتناز العاطفي أو تلك العبارات المنمقة الطافحة بكم من المشاعر الجياشة، لأجل ذلك " يجب أن نعترف في سياق هذا التصور أن للمرأة خصوصية مهمة ظهرت في كتابتها، ولم تظهر في كتابة الرجل عن نفسه أو حتى في تناوله للمرأة في السرديات تحديدا، وهي خصوصية ناتجة في سياق إحساسها المختلف بالأشياء التي تربت عليها منذ طفولتها، وهي أشياء تطلبتها أنوثتها التي عنت وأكدت الإحساس بضيق المكان، ومحدودية اللغة الحوارية الاجتماعية، وثقل الزمن، واختلاف الجسدي والنفسي في شخصيتها عن شخصية الرجل"²³، تلك المشاعر التي تسيطر على لغة المرأة في كثير من الأحيان فجرت لغة مميزة خاصة بها.

وهذا ما ذهب إليه " جورج طرابيشي" في حديثه عن الاختلافات الجوهرية بين الرجل والمرأة؛ إذ يرى أن " الرجل يكتب بعقله والمرأة تكتب بقلبها وأن العالم هو محور اهتمام الرجل، أما المرأة فمحور اهتمامها هو الذات، حيث تستمد جمالية الكتابة في المقام الأول من ثراء العواطف وزخم الأحاسيس"²⁴، لذلك تبرز لغتها

الطافحة بالأحاسيس في أغلب رواياتها، فنجد رواياتها تضج بالمشاعر فتأتي البنية الحكائية مكتنزة، نظرا لارتكاز المرأة على جمالية اللغة والعبارات الموحية الملتوية .

لذلك نجد المرأة تنغمس في القضايا الحياتية بكل كيانها وتتأثر بها نتيجة أحاسيسها المرفهة وعواطفها الدافقة، ولأجل ذلك نرى بعض الروائيات يركزن على مواضيع معينة في رواياتهن قد لا يلتفت إليها الرجل أبدا ولا يتأثر بها، وإن حدث وتفاعل مع قضية ما فهو " يكتب بشكل توثيقي فنحن نعرف 90% مما سيقوله فحياته مكشوفة أما عندما تكتب المرأة في نفس الاتجاه تأتي كتابتها صادمة ومدهشة؛ لأن القارئ لا يعرف سوى القليل ومن هنا تنبع الخصوصية"²⁵، وهذا ما يفجر لذة النص بالنسبة للقارئ فتأويلاته المعتادة غالبا ما تكسر أمام العوالم الخفية للمرأة اللامنتهية واللامتوقعة، وهذا رد على النقاد الذين يؤكدون فكرة التفضيل الجنسي ويصرون في الآن نفسه على إلغاء كل الفروقات التي من شأنها إبراز الحقائق والمميزات.

3.4 الاختلافات التاريخية:

إن استنطاق التاريخ يؤكد لنا تلك الفروق التي كانت قائمة بين الرجل والمرأة، وأبرز مثال على ذلك سياسة الوأد المنتهجة ضد المرأة قديما وحديثا والذي انعكس على تفكيرها وتوجهاتها، فكون شخصية تضرر جانبا مظلما بسبب ظلم المجتمع والثقافة للذات الأنثوية، وهذا ما يبرز بشكل واضح في الخطابات التي تنسجها المرأة، وما يشكل فرقا جوهريا بين حديثها وحديث الآخر، لذلك نجد " تجربة الموقع التاريخي الذي تعيشه المرأة، وما عرفته من قهر تاريخي يضيفان إلى التعبير الأدبي بعض المميزات المقترنة بشرط الذات الكاتبة، والذي تنعكس بعض ملامحه على تجربة الإبداع سواء على المستوى المضمون أو الشكل"²⁶، هذه الذات المقموعة حين تمردت على وضعها المأساوي ثارت على القوالب المستهلكة وجنحت بخيالها لمواطن الأمن والاستقرار كتعويض على ما اصطدمت به من انكسارات.

لذا يرى البعض أن الاختلافات التاريخية بين الطرفين فجرت خصوصية بارزة في خطاب كل طرف، فهذا الناقد المغربي " محمد براءة " يرجع مصدر الخصوصية إلى الشرط التاريخي الذي حدد ذاكرة المرأة وذاتها، ولذلك فإن اشتركت المرأة مع الرجل في الشروط العامة التي تنعكس على الكتابة الأدبية، فإنها تعزز كتابتها بخصوصية تجربتها النفسية والحياتية، هذه الظروف التي عانت منها المرأة ساهمت في منحها ذاكرة ثرية بشتى القضايا والمواضيع، وأكسبتها مادة حكاية خام تضرر في جعبتها الكثير من الخطابات التي تغري القارئ وتكسر توقعاته، وبالتالي تختلف الرؤية الذاتية الأنثوية عن تلك التي يرسمها الرجل فالأحداث تختلف والظروف كذلك .

4.4 الاختلافات الاجتماعية والثقافية:

خلقت الاختلافات الاجتماعية والثقافية قاموسا خاصا بالمرأة وميولات ورؤى تختلف عن الآخر، بحكم التميز الذي فرضه المجتمع على الجنسين، هذا المجتمع الذي خلقت عاداته وتقاليده شرحا واضحا بين الطرفين، فمنحت الرجل المركزية وقدمت له الأولوية، في كافة المجالات في حين دفعت بالمرأة إلى الهامش وأقصت دورها من الحياة فلم تسند إليها إلا بعض الوظائف التي يعتبرونها منقصة لغيرها، لذلك نرى ملامح خصوصية بارزة في

خطاب المرأة تنفرد بها " فليس لنا نحن والرجل، الماضي نفسه ولا الثقافة نفسها ولا التجربة نفسها، فكيف يكون لنا والحالة هذه التفكير نفسه والأسلوب نفسه؟ ذلك أن المرأة تكتب بشكل متميز عن الرجل، لاسيما بعد أن تطورت العادات والتقاليد بفضل النضالات النسوية، حيث لم يعد ينظر إلى هذه الخصوصية في أسلوب الكتابة على أنها تعبير عن دونية ومحدودية، بل جرى التعامل معها كحق من حقوق المرأة في التمايز²⁷؛ وبما أن التجارب تختلف والمشاعر كذلك فمن الطبيعي أن تكتسب المرأة نمطا مغايرا عن المؤلف، في تفكيرها ولغتها وأسلوبها، ولعل الجمالية الخاصة بالنساء، تنشأ من رؤيتهن المحكومة بأوضاعهن شديدة الخصوصية، والمتعلقة بالتكوين الثقافي الأنثوي للمرأة، والذي قد لا يخطر بذهن الرجل عند معالجته للشخصية النسوية في كتابته، ويمكن أن ينجر هذا الكلام على الكثير من الخصوصيات الأخرى كالنفسية والجسدية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية.. التي تجعل تكوين المرأة الكلي مختلفا عن تكوين الرجل في الحياة أولا، ثم في الإبداع ثانيا²⁸، ومن هنا تكون معجما خاصا بالمرأة بينته في رواياتها فتناولها للقضايا الشائكة التي ترنو إلى إقامة العدالة ومناهضة أشكال الظلم والجور، حررها من المواضيع المستهلكة فاقتحمت الطابوهات وفضحت المحظورات لتعالج جراح وآلام المظلومين والأقليات، وظهر ذلك بشكل واضح وجلي في الرواية النسائية العربية عند العديد من الروائيات كآسيا جبار، أحلام مستغانمي ورضوى عاشور، نوال السعداوي وغيرهن الكثيرات.

كما لا يفوتنا الإشارة في هذا المقام إلى دور النقد النسوي في تتبع كتابات المرأة وتمحيصها وتقويمها من خلال التركيز على مختلف الفروق الجوهرية بين الطرفين التي من شأنها خلق خصوصية في خطاب كل طرف، لذا تبدو مهمة النقد النسوي كامنة في التفاعل مع الكتابة النسوية من خلال الارتكاز على عدة اختلافات بين الرجل والمرأة (...). ومن هذه الاختلافات:

1/- البنية النفسية للمرأة تختلف عن البنية النفسية للرجل، مما يفرض وضعها نفسيا مغايرا في الكتابة النسوية!!

2/- البنية الجسدية للمرأة تختلف عن البنية الجسدية للرجل، مما يفرض وضعها جسديا مغايرا في الكتابة النسوية.

3/- البنية الاجتماعية الانطوائية المفروضة على المرأة تختلف عن البنية الاجتماعية الذكورية المهيمنة، مما يفرض علاقات اجتماعية نسوية مغايرة في الكتابة النسوية.

4/- التاريخ الثقافي الذكوري الممتد يقابله تاريخ نسوي محدود جدا، مما أوجد دورا مهما للمرأة في الثقافة والإبداع.

5/- الدور الإنتاجي للرجل اقتصاديا يقابله هضم حقوق المرأة الانتاجية من خلال تهميش دورها في المنزل، واختزلها إلى دور المرأة الخادمة.

6/- اختلاف خيال المرأة عن خيال الرجل، مما يستدعي اختلاف الذاكرة النسوية عن الذاكرة الذكورية²⁹؛ لأجل ذلك نرى أن الاختلافات بين الجنسين على تنوعها سواء كانت اختلافات بيولوجية أم نفسية أم تاريخية أم اجتماعية وثقافية تعد أحد أهم مكامن الإبداع والخصوصية، فغالبا ما نجد المرأة تميل إلى التطرق إلى معالجة قضاياها الحياتية، وتناهض أشكال الاستعمار، هذه المواضيع التي تعالجها المرأة وتستنطق أفقها قد لا ينتبه إليها الرجل أو لا يعبر عنها بتلك العاطفة الجياشة وتلك الدقة في تتبع التفاصيل، وكيف له ذلك؟ وهو لم يكن جزء منها، وبالتالي تخلق تلك الاختلافات خصوصية بارزة في الكتابة النسائية.

كما تركز المرأة غالبا في نسج نصها سواء كان شعرا أم نثرا على التعبيرات الغامضة أو بالأحرى الملتوية، ما يفضي إلى اتساع التأويلات وتوالد الدلالات، هذه الفسحة التي تمنح القارئ لذة في جعله طرفا إيجابيا يسهم في بناء النص دون منحه دلالات نهائية ومؤكدة، ورغبة منها في إعادة تشكيل الواقع وأدوار من حولها انطلاقا من نظرتها الخاصة التي تركز على ما ينبغي أن يكون لا ما هو كائن، وعليه تتجلى لنا خصوصية الكتابة النسائية بشكل واضح في إبداعاتها، فالرواية النسائية على سبيل المثال لا الحصر تضح بخصائص وموضوعات معينة كترجيحية الذات الأنثوية وذاك يبرز في طغيان ضمير الأنا، وهذا ما تعكسه الرواية النسائية والتي غالبا ما تكون سيرا ذاتية، تضح بحياة المرأة واعترافاتها الذاتية، وكذا التحرر اللغوي أو بالأحرى التمرد على العرف اللغوي المعتاد، والجرأة في كسر المحظورات وقد شهدنا العديد من الروائيات اللاتي برزن في ذلك كفضيلة الفاروق، و غيرها .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المفارقات والاختلافات التي تتجلى في كلا الجنسين، والتي يراها بعض النقاد أنها فكرة تعلي طرفا على حساب آخر، فكرة واهية أو بالأحرى فكرة موبوءة تهدف إلى التفرقة بين الجنسين؛ فرغم كل المميزات والخصائص التي يمتاز بها كل طرف عن الآخر إلا أن التحامهما أساس الوجود البشري، وهذا ما يؤكد فكرة الرؤية التكاملية التي يجب أن نلتفت إلى أبعادها وأهدافها؛ إن هذه الاختلافات الجوهرية بين الطرفين تصنع النموذج الأمثل في كل مجالات الحياة، وبما أن الاختلاف أساس الحياة قد أصبح لزاما علينا إسقاط النظرة الأحادية القاصرة عن فهم الطرف الآخر، تلك الرؤية التي قدمت بعض النتائج والحقائق ناقصة لأنها من زاوية واحدة.

5. سؤال الجسد في الخطاب الروائي النسائي

يرى بعض الباحثين أن مصطلح " كتابة الجسد" أطلقت لأول مرة " جوليا كريستيفا" عام 1974، في كتابها " ثورة اللغة في الشعر" بعدما اتخذ الرجل جسد المرأة كموضوع أساسي للكتابة وحرمه على المرأة وجعل كلامها عن جسدها والتعبير عن خباياها من المحظورات، فقيدت الثقافة الذكورية جسدها وجعلت الإفصاح عنه من طرف المرأة من الطابوهات أو بالأحرى من المحرمات، لتنشأ المرأة بعقدة جسدها المحرم عليها، إلا أن ثارت على نظام ظالم أطبق على أنفاسها وكتم صوتها وخاصة مع نداءات رائدة النسوية " سيمون دي بوافوار (Simone de Beauvoir) (1908-1986) التي ركزت، على تحرير جسد المرأة من كل الشوائب المدنسة له، لذا" كان شهر ماي سنة 1968م بداية لمرحلة وصفت بأنها مرحلة من أجل الجسد، رفعت فيه "

سيمون دي بوافوار " شعارها التاريخي عندما صرخت بأن " هذا الجسد جسدا ونحن نريد أن نسكنه بحق ونتصرف به بحرية"، وقد جعلت هذه المرحلة من الجسد أحد وسائطها الرسمية لتخطي العديد من القيود والتراتيبات الرمزية، ولم يكن من سبب لتحرير الجسد المهان سوى تحرره ليصبح شريكا غير مرتقب لتطور الذات، فمع تطور فعل تحرير الجسد داخل فضاءات ثقافية وعاطفية، تولدت الرغبة في نسج مفاهيم عامة لوصف جديد حياة المرأة³⁰، ذلك أن الجسد هو علامة أساس على الوجود المستقل، وأساس ظهور هويتها الخاصة، ومنه كان جسد المرأة مكنن خصوصيتها وتميزها عن الآخر، لذلك عملت على إعادة تحرير جسدها للتعبير عن الذات الأنثوية والأنا المتحررة من كل تبعية، من خلال خلخلة المركزية الذكورية، لكن الأزمة انبثقت حين تمادت النسويات في تحررهن فانقلبت الموازين، فلما حاولت المناضلات وغيرهن من الانفلات من آلية الجسد أو "الجسد السلعة" بحسب ما اصطلحت عليه الثقافة الذكورية سقطن في هوة سحيقة دمرت أجسادهن وأحرقت أرواحن، وتجلت هذه التشوهات في روايات تفضح الجسد وتقيد في زوايا محددة دون تحريره.

كما دعت " هيلين سيكسو" (Hélène Cixous) المرأة للتحرر من سلطة المرجع الخائفة، والانقلاب على المركزية الذكورية انطلاقا من التعبير عن أجسادهن في نصوصهن لتحطيم القيد وفضح الرؤية البؤسوية القاصرة التي وسمت جسد المرأة بصفات دونية، وبهذا التعبير تكتسب الذات الأنثوية حضورا مختلفا وتبرز وعيا جديدا بكيونيتها الخاصة، وترسم أفقا لا مألوفة لجسدها غير تلك الصورة النمطية التي حددها الرجل، إلا أن المرأة إنزاحت عن هدف تحرير نفسها من شرقة السلطة الذكورية لتقع رهينة المغالاة، فاتخذت بعض الروائيات أجسادهن كوسيلة للبوح الإيروتيكي الذي كبل الذات الأنثوية لتعيد نفسها إلى سجنها الأول دون وعي منها بأن الحرية دون مبادئ موت أكيد.

ومن ثم اتخذت سمة بارزة في الرواية النسائية، فقد ركزت الكثير من النساء على فاعلية الصورة والاستعارات من أجل تغيير المفاهيم ورسم صور أخرى للجسد بالاعتماد على التمثيل الجمالي حيناً والتمثيل الإيروتيكي حيناً آخر أو بالمزاوجة بينهما، ورغم أننا لا ننفي المراحل التي مرت بها الكتابة بالجسد من لدن الكاتبات اللاتي ركزن في المرحلة الأولى على التمثيل الجمالي للجسد ومنحه أبعادا أيديولوجية لإسقاط الثقافة الذكورية، واعتماده كعنصر مهم يمنح خصوصية للمرأة ولا يقتصر فقط على تلك الأدوار التي التصقت به؛ حيث اتخذ البعض كوعاء للإنجاب أو للمتعة فقط، وعده البعض الآخر آلة للرعاية والخدمة، وبسبب هذه الصفات الهامشية تجلت المرحلة الثانية من الكتابة بالجسد التي ألغت الطابوهات وأنطقت المسكوت عنه وفضحت كل مكبوتات المرأة بتعابير خدشت الحياء في كثير من الأحيان، وتجلى لنا ذلك في عدة روايات منها رواية "العالم ليس بخير" لأمال بشيري" ورواية "عازب حي المرجان" لربيعة جلطي" بالإضافة إلى روايتين بارزتين للروائية "فضيلة الفاروق" "تاء الخجل واكتشاف الشهوة" وغيرهن من الروائيات اللاتي ركزن على رسم صورة المرأة المقيدة المقهورة في مقابل صورة الرجل الظالم المستبد فجعلت من التمثيل الإيروتيكي وسيلة لتفجير رغبة الذات الأنثوية للتحرر من قيود

الثقافة الذكورية، إلا أن الرواية النسائية استطاعت أن تبرز وعيا ناضجا واهتماما بارزا بكل معالم الذات الأنثوية وخاصة جسدها؛ أين عمدت الروائيات إلى تحقيق التمثيل الجمالي ومناهضة الإيديولوجية العنصرية التي هيمنت عليها الثقافة الأبوية، واستطاعت أن ترسم أفقا جديدة لجسدها وترسم له دلالات مختلفة عما هو سائد، وهذا ما يبين لنا أن مسار الكتابة الروائية النسائية التي مرت بثلاث مراحل بارزة، فكانت الأولى محتشمة توراي رغبتها الجاححة في التحرر، أما الثانية فقد انتفضت على العادات والتقاليد واقتحمت عوالم مظلمة ممنوعة، وبعدها استطاعت أن تمر لمرحلة أخرى عكست وعيا ناضجا .

6. جدلية الأنا والآخر في الرواية النسائية المعاصرة

تعكس جل الروايات النسائية العربية جدلية توراي تناقضات أجبرتها الثقافة الذكورية على عيشها، والتي انفلتت من الروائية لتكشف جل آلامها وانقساماتها، بين رغباتها وسلطة المجتمع وعاداته الخائفة، وبين الذات الأنثوية وهيمنة النسق الفحولي، ما أدى إلى تعدد الأصوات داخل الرواية النسائية وصور الذوات المختلفة التي تعكس أغلبها رغبة الذات الأنثوية في التمرد على واقع موبوء، وفي هذا الصدد يقر الناقد المغربي "الدادي سي" " قد تكون وضعية المرأة كما تصورها الروائيات وضعية مزرية، دون أن تدرك معظمهن أن واقعنا العربي يجعل المرأة والرجل معا مطحونين تحت وطأة واقع سياسي اقتصادي واجتماعي متشظ، والمرأة فيه أكثر هشاشة، لكن المرأة الروائية فضلت الحديث بصوت واحد، في الأغلب الأعم، هو صوت المرأة المظلومة دون أن تمنح فرصة أكبر للرجل لتقديم رأيه"³¹، وكما يبدو مما سبق فإن أحكام القلم الرجالي مازالت تثقل كاهل المرأة، ذلك أن بعض الناقدين لم يمنحوا للذات الأنثوية الفرصة للتعبير عن هواجسها ورؤاها التي كابدها لروح من الزمن، بل مزال من بينهم من يصر على التفضيل الجنسي محولا حصر رواياتها تحت وطأة النظرة البؤبؤية القاصرة على الارتقاء إلى سموات الإبداع، رغم أن هناك العديد من الروايات التي تعالج القضايا الوجودية الهامة وتناقش المواضيع الإنسانية بروى جديدة، وإن بدت بعض الروايات تشترك في تصميم صورة الرجل إلا أن صانعاتها يختلفن في الطرح والمرجعية والأسلوب والميولات وكذا الأهداف، بل هن يبرزن إلتزامهن بالدفاع عن القضايا النسوية العادلة، والتي مازالت محاصرة من سلطة النسق الفحولي إلى يومنا، وإذا ما تجلت صورة الرجل بشكل بارز في المتن الحكائي فذلك لأن صورته تحيط بها في كل اتجاه فهو الأب والزوج والأخ والإبن...

7. خاتمة:

اصطدم الأدب النسائي بموجة من الانتقادات رفضت دوافعه وأهدافه وخصائصه، فانطلقوا من رفض المصطلح وإلغاء خصوصياته وارتكزوا على تقديم فكرة إبداع المرأة، ورغم تباين الآراء النقدية بين مؤيد لفكرة الرؤية التكاملية ورافض لها، إلا أن المقاربات النقدية للمنجز الروائي النسائي لم تحقق أهدافها فالآراء النقدية متباينة وضيئة بالمقارنة بالإبداعات المتتالية، وعليه فإن أهم النتائج المستخلصة هي:

- لا يمكن القول إن كل النساء نسويات، كما أن التجربة المشتركة للنساء وحدها ليست قادرة على جعلهن نسويات فبعضهن خاضعات للسلطة الذكورية الخائفة، وكما سبق وأشرنا إليه أن الفكر التحرري الجامح الذي

يسعى إلى التخلص من شرنقة الثقافة الذكورية والتمرد على النسق الفحولي المهيمن على المجتمعات، واسترجاع حقوق المرأة المسلمة أساس الفكر النسوي.

- إن الذات المتمردة التي عكستها جل الروايات النسائية كانت ردا عن سياسة الإقصاء المنهجية ضدها منذ أمد بعيد، فخلقت نصا مضادا للثقافة الذكورية المتجذرة في عمق المجتمعات، وصورة الرجل في رواياتها لا تعكس محاربتها له كما يزعم بعض النقاد بل هي تبرز من خلالها أبعاد المجتمع الذي خضع لسيطرة النسق الفحولي وكبل الذات الأنثوية، إذن نضال المرأة من أجل فرض رؤية موضوعية تكاملية ليس حربا ضد الرجل كما يراه بعض النقاد بل هي مناهضة لفكرة العنصرية وكل أشكال الاستعباد والاستبداد

- تنبثق جمالية الكتابة النسائية بحسب بعض النقاد على براعة تأثيث المرأة المبدعة لنصها بالارتكاز على فن المخاتلة ومبدأ الاحتمال والاعتماد على اللعب الحر لخلق فضاء للتنمية والمناورة، ما يجعل نصها في حركية دائمة وتجدد مستمر، نظرا للغتها الملتوية التي تدحض التقريرية والمباشرة في كثير من الأحيان، ما يفضي إلى انفتاح النص على المتعدد القرائي وتفجير شعرية باذخة

- تعدد الذوات داخل المنجز الروائي (الذات المتمردة، الذات النرجسية، الذات المتصوفة، الذات الحزينة...)، فجر تعددا في أصوات الذات الأنثوية، أكسب الرواية النسائية جماليات كسرت رتابة الأدوار ووضوح الأحداث فانفتحت على المتعدد القرائي.

وفي ختام هذه الدراسة نوصي باحترام الجهود المبذولة من لدن النقاد وإن اختلفت المذاهب والرؤى والميولات، وتوحيد الجهود لإرساء دعائم متينة للنظرية النسوية وكذا النقد الموجه لها انطلاقا من بيئتنا وثقافتنا، ذلك أن الحركات النسوية اليوم قد أصبحت تهديدا صارخا للمجتمعات التي لا تحميها تعاليم الإسلام، فقد انقلبت من نضالات تناصر المظلوم وتدافع عن الحق المسلوب إلى شعارات تنبؤ بالموت والفناء.

8. الهوامش:

¹ - خالد بن عبد العزيز السيف، إشكالية المصطلح الأنثوي - دراسة دلالية لمصطلح المساواة.. الحجاب، التمكين، أنموذجا، دار التكوين (المملكة العربية السعودية، 2016)، ط1، ص: 42.

² - المرجع نفسه، ص: 54.

³ - خالد بن عبد العزيز السيف، إشكالية المصطلح الأنثوي - دراسة دلالية لمصطلح المساواة.. الحجاب، التمكين، أنموذجا، ص: 05.

⁴ - عامر رضا، الكتابة النسوية العربية من التأسيس إلى إشكالية المصطلح، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، قسم الآداب والفلسفة، ع: 15، جانفي 2016، ص: 05.

⁵ - المرجع نفسه، ص: 06.

⁶ - سلمى براهيم، سرديات النسوية، دار الحوار (اللاذقية - سورية، 2019)، ط1، ص: 19. نقلا عن: خديجة العزيمي: الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي، ص: 17.

⁷ -Deborah L. Madsen: Feminist Theory and Literary Practice, Pluto Press, First published by Pluto Press , LONDON • STERLING, VIRGINIA, 2000 ,P :ix

⁸ - المرجع السابق، ص: 20.

⁹ - ليلى بلخير: خطاب المؤنث في الرواية الجزائرية المعاصرة، مؤسسة حسين راس الجبل، (قسنطينة، 2016) د.ط، ص: 29.

¹⁰ - رضا عامر: الكتابة النسوية العربية من التأسيس إلى إشكالية المصطلح، ص: 515-516. نقلا عن: خالدة سعيد:

المرأة، التحرر والإبداع، سلسلة نساء مغاربيات، بإشراف: فاطمة المريني، نشر الفنك، 1991م، ص: 86.

¹¹ - المرجع نفسه، ص: 517. ينظر: سعيد يقطين: الأدب و المؤسسة و السلطة (نحو ممارسة أدبية جديدة)، المركز الثقافي

العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط1، 2002، ص: 58.

¹² - كريمة بكاي: الموقف النقدي والأدبي من " الأدب النسوي " في العالم العربي ، ص: 516. نقلا عن: رشيدة بنمسعود: المرأة

والكتابة (الاختلاف وبلاغة الخصوصية)، إفريقيا الشرق، المغرب/بيروت، ط2، 2002م، ص: 77.

¹³ - المرجع نفسه ، ص: 232. نقلا عن: جورش طرابيشي: الأدب من الداخل، دار الطليعة، بيروت-لبنان، ط1، 1978،

ص: 11.

¹⁴ - المرجع نفسه، ص: 232. نقلا عن: بوشوشة بن جمعة: الرواية النسائية المغاربية، ص: 122.

¹⁵ - المرجع نفسه، ص: 518. نقلا عن: رشيدة بنمسعود: المرأة والكتابة، ص: 82.

¹⁶ - بنية شعبان: 100 عام من الرواية النسائية العربية، دار الآداب، (بيروت، 1999) ط1، ص: 62.

¹⁷ - المرجع السابق، الصفحة نفسها.

¹⁸ - عبد الله الغدامي: المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء- المغرب، 1996) ط1، ص: 11. نقلا عن: الأعمال

الكاملة، (1/650).

¹⁹ - الأخضر بن السائح: سرد المرأة وفعل الكتابة - دراسة نقدية في السرد وآليات البناء-، دار التنوير، (الجزائر، 2012)،

ص: 117-118.

²⁰ - البشير عصام المراكشي: جدل النسوية والذكورية، مركز رواسخ، (الكويت، 2023)، ط5، ص: 69. نقلا عن:

Doreen Kimura ,Cerveau d'homme, Cerveau de femme , Odile Jacobe , 2001.

²¹ - جاد الكريم الجباعي: فح المساواة تأنيث الرجل.. تذكير المرأة، مؤمنون بلا حدود، (المملكة المغربية- الرباط، 2018)، ط1،

ص: 85.

²² - سعيدة بن بوزة: الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، إشراف: الطيب بودربالة، (دكتوراه)، قسم اللغة العربية

وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر - باتنة، الجزائر، 2008، ص: 69. نقلا عن: محمد برادة: هل هناك

لغة نسائية في القصة؟، مجلة أفاق، المغرب، ع: 12، 1983، ص: 135.

²³ - حسين المناصرة: النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، (إربد- الأردن، 2008)، ط1، ص: 04.

²⁴ - سهام خينوش: النقد النسوي في الخطاب النقدي العربي المعاصر، إشراف: جمال مجناح، (دكتوراه)، قسم اللغة والأدب

العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسلة- الجزائر، 2018، ص: 135. نقلا عن: كريمة غيتري: جمالية الرواية

السريية رواية السمك لا يبالي لإنعام بيوض أتمودجا، ص: 05.

²⁵ - المرجع السابق، الصفحة نفسها. نقلا عن: محمد نور الدين أفاية: الهوية والاختلاف في المرأة، الكتابة والهامش، ص: 7.

- ²⁶ - زهور كرام: السرد النسائي العربي -مقاربة في المفهوم والخطاب-، شركة النشر والتوزيع المدارس، (الدار البيضاء، 2004)، ط1، ص: 73.
- ²⁷ - رشيدة بنمسعود: المرأة والكتابة سؤال الخصوصية/ بلاغة الاختلاف، أفريقيا الشرق، (الدار البيضاء- المغرب، 2002)، ط2، ص: 91. نقلا عن: كارمن بستاني: الرواية النسوية الفرنسية، الفكر العربي المعاصر، العدد 34، 1985، ص: 122.
- ²⁸ - حسين المناصرة: النسوية في الثقافة والإبداع، ص: 101.
- ²⁹ - المرجع السابق، ص: 111.
- ³⁰ - عبد النور إدريس: النقد الجندري - تمثيلات الجسد الأنثوي في الكتابة النسائية-، دار فضاءات، (المغرب، 2013)، ط1، ص: 165.
- ³¹ - أحمد رجب شلتوت: صورة واحدة للرجل في الروايات النسائية العربية، صحيفة العرب، 2024/12/07.

9. قائمة المراجع:

* المؤلفات:

- 1/- خالد بن عبد العزيز السيف، إشكالية المصطلح الأنثوي -دراسة دلالية مصطلح المساواة.. الحجاب، التمكين، أنموذجا، دار التكوين، (المملكة العربية السعودية، 2016)، ط1.
- 2/- سلمى براهمة، سرديات النسوية، دار الحوار، (اللاذقية - سورية، 2019)، ط1.
- 3/- ليلي بلخير، خطاب المؤنث في الرواية الجزائرية المعاصرة، مؤسسة حسين راس الجبل، (قسنطينة، 2016)، د.ط.
- 4/- بثينة شعبان، 100 عام من الرواية النسائية العربية، دار الآداب، (بيروت، 1999)، ط1
- 5/- عبد الله الغدامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء- المغرب، 1996)، ط1.
- 6/- الأخضر بن السائح، سرد المرأة وفعل الكتابة - دراسة نقدية في السرد وآليات البناء-، دار التنوير، (الجزائر، 2012).
- 7/- البشير عصام المراكشي، جدل النسوية والذكورية، مركز رواسخ، (الكويت، 2023)، ط5.
- 8/- جاد الكريم الجباعي، فسخ المساواة تأنيث الرجل..تذكير المرأة، مؤمنون بلا حدود، (المملكة المغربية- الرباط، 2018)، ط1.
- 9/- حسين المناصرة، النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، (إربد- الأردن، 2008)، ط1.
- 10/- زهور كرام، السرد النسائي العربي -مقاربة في المفهوم والخطاب-، المدارس، (الدار البيضاء، 2004)، ط1
- 11/- رشيدة بنمسعود، المرأة والكتابة سؤال الخصوصية/ بلاغة الاختلاف، أفريقيا الشرق، (الدار البيضاء- المغرب، 2002)، ط2
- 12/- عبد النور إدريس، النقد الجندري - تمثيلات الجسد الأنثوي في الكتابة النسائية-، دار فضاءات، (المغرب، 2013)، ط1

13/-Deborah L. Madsen : Feminist Theory and Literary Practice, PlutoP Press, First published by Pluto Press, LONDON • STERLING, VIRGINIA, 2000

*المقالات:

- 1/- عامر رضا :الكتابة النسوية العربية من التأسيس إلى إشكالية المصطلح ، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، قسم الآداب والفلسفة ، ع:15، جانفي 2016.
- 2/- بكاي (كريمة) :الموقف النقدي والأدبي من " الأدب النسوي " في العالم العربي ، مجلة الصوتيات، المجلد(20) العدد (02) شعبان 1439/أفريل

*الأطاريح الجامعية

- 1 /- سعيدة بن بوزة: الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، إشراف: الطيب بودربالة، (دكتوراه)، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر - باتنة، الجزائر، 2008
- 2/- سهام خينوش: النقد النسوي في الخطاب النقدي العربي المعاصر، إشراف: جمال مجناح، (دكتوراه)، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسلة- الجزائر، 2018

*الصحف

- أحمد رجب شلتوت: صورة واحدة للرجل في الروايات النسائية العربية، صحيفة العرب، 2024/12/07